السيدة عائشة أم المؤمنين والسيدة كلينتون «أم الإخوان»!

هل ثمة سياسة عربية وخارجية جديدة لمصر الآن؟، وهل من فارق حقيقى بين خط الرئيس محمد مرسى العياط وخط المخلوع محمد حسنى مبارك؟

هناك ـ بالطبع ـ متغيرات دراماتيكية فى الخرائط العربية، وبسبب جوهرى هو تلاحق الثورات التى انتقلت سريعا من تونس إلى مصر، ثم شملت ليبيا، واتجهت إلى الشرق فى اليمن ثم سوريا والبحرين، ونشأت فى مواجهة الثورات محاولات دءوبة للاحتواء، ولا تزال المعركة جارية فصولها، والسجال مفتوح، ودون أن يصل المشهد بعد إلى صورة ختام.

ومن ثم لا يصح ـ مثلا ـ أن تقارن بين موقف مرسى فى الموضوع السورى وموقف مبارك، ولسبب بسيط جدا، وهو أنه لا يمكن تخيل أن الثورة كانت ستقوم فى سوريا أيام بقاء مبارك فى رئاسة مصر، فلم تكن الثورة لتقوم فى سوريا دون أن تنشب أولا فى مصر، والمعنى: أن موقف مرسى الداعم للثورة فى سوريا، ومطالباته المتكررة بتنحى بشار الأسد، هذا الموقف ليس من موضوعات المقارنة الجائز تصورها عقلا بين خط مرسى وخط مبارك، فهو موضوع مستجد تماما، وموقف الشعب المصرى فيه ظاهر تماما، فالكتلة الغالبة من الشعب المصرى وقواه الحية تستشعر عذاب الشعب السورى، وتؤيد ثورته وأشواقه إلى الحرية، ولسوريا ـ كما هو معروف ـ مكانتها المميزة فى ضمائر وقلوب المصريين.

عدا قصة سوريا المستجدة، والتى ليس بوسع مرسى أن يقول فيها كلاما آخر، فلا يبدو من جديد ملفت فى سياسة مرسى العربية يميزه عن مبارك، بل إن التشابه إلى حد التطابق يبدو ظاهرا، برغم أن مرسى يبدو مختلفا فى أدائه

الشخصى، وفى ثرثراته السياسية المرتجلة غالبا، والتى يحاول بها أن يوحى بفارق ما عن مبارك، والذى كان يقرأ نصوصا كتبت له، لا يتجاوزها، ولا يبدى انفعالا بشيء يحرك وضعه «الشمعى» الجامد.

أصل التقارب - إلى حد التطابق - بين مرسى ومبارك فى داخل مصر ذاتها، وقبل أن يمتد بأثره إلى خارجها، وربما لا يكون لمرسى شخصيا حيلة فى القصة كلها، فمرسى كادر إخوانى ملتزم ومطيع نموذجى، وصعد إلى رئاسة حزب الإخوان بفضل طاعته للمرشد، ويواصل نفس سلوك الطاعة وهو فى كرسى الرئاسة المصرية، وقراراته تصاغ له فى مكتب إرشاد الإخوان، ثم تترك له مهمة توقيعها، وليس لدى جماعة الإخوان اختيار مختلف جوهريا عن سابقتها «جماعة مبارك»، لا فى السياسة ولا فى الاقتصاد ولا فى الثقافة، وسياسة مرسى - فى المحصلة - هى سياسة مبارك، وإن كان جائزا إضافة بعض التنقيحات الإخوانية، أو التمتمات والثرثرات والتبريكات، والإكثار من ذكر الآيات القرآنية، وإضفاء طابع دينى مموه على اختيارات مبارك ذاتها، وهذه اختلافات فى المبنى لا تجد مكافئا لها فى المعنى، فمصر - تحت رئاسة مرسى - لا تزال فى القيد الاستعمارى نفسه، ولا تزال خاضعة للهيمنة الأمريكية الإسرائيلية، وأقرب إلى وضع المستعمرة الأمريكية كاملة الأوصاف، واقتصادها لا يزال محتلا، وتحت وصاية صندوق النقد والبنك الدوليين، ونخبتها الاقتصادية هى ذاتها «رأسمالية المحاسيب» الموروثة عن جماعة مبارك، ومع إعادة تشكيل فرق مليارديرات الغفلة، وبحيث تؤول القيادة إلى «كابتن» من جماعة الإخوان لا من جماعة مبارك، وعلى طريقة إحلال أدوار لخيرت الشاطر أو حسن مالك - الإخوانيين - محل دور أحمد عز «المباركى»، والمحصلة : أن مصر لا تزال فى الأسر، ولا يتوقع من بلد أسير أن تكون له إرادة يعتد بها، أو أن يصوغ سياسة عربية وخارجية حرة، أو أن تكون له إستراتيجية تخصه، وليست ملحقة بالآخرين، وحتى فى الموضوع السورى الذى يبدو فيه موقف مرسى محقا، فإنه أقرب إلى استعادة لمواقف

آخرين فى منطقة الخليج الخاضعة للأولويات الأمريكية، والذين لا تهمهم حرية الشعب السورى بقدر ما يهمهم اضعاف سوريا وتفكيكها.

وفى خطاب مرسى الأخير بالجامعة العربية، بدت مصر كأنها دولة «صغيرة» الشأن تتبرع بتأييد أدوار الآخرين، وعلى طريقة أفراح القرى الصغيرة فى مصر، والتى يتبرع فيها مذيع الحفل بتحية و«مشوبشة الرجالة والمعلمين» مقابل نقود توضع فى حجره، فمرسى - فى خطابه - يؤيد ويحيى دور السعودية فى اليمن (!)، ويؤيد ويحيى دور قطر فى السودان (!)، ودون أدنى التفات لدور مصر ذاتها، وحتى فى الموضوع الفلسطينى، وهو منطقة نفوذ تقليدى لمصر، فقد بدت ثرثرات الرجل تكرارا لأراجيز مبارك عن السلام الذى لا يأتى أبدا، وعن دعم مصر لعباس فى توجهه للأمم المتحدة، ودون أن يذكر مرسى - الإخوانى - إسرائيل بصفة «العدو»، ولا لمرة واحدة، بل ذكرها بصفة «الطرف الآخر»، وبدا الأمر كله أشبه بمسخرة حقيقية، انتهت إلى ذات النهاية العاجزة المكررة، وهى تقدم الجامعة العربية بشكاوى ورجاءات إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة فى الموضوعين السورى والفلسطينى، وانفضاض الاجتماع كما بدأ، ومع فارق كئيب إضافى، وهو غلق الشوارع المحيطة بمقر الجامعة العربية على نيل القاهرة لتسهيل مرور موكب مرسى وحراساته الأمنية الكثيفة، وعلى طريقة مبارك المخلوع ذاتها(!).

وقد يقال لك: إن مرسى زار الصين فى أول رحلاته للعالم غير العربى، وأن فى هذا مؤشر على تغير ما، وهذه قراءة خاطئة تماما، فقد أعلنت مؤسسة رئاسة مرسى عن موعد زيارته لواشنطن قبل أن يذهب إلى الصين، ثم إن رحلة مرسى للصين كانت محض اقتصادية و«تسولية»، تماما وعلى ذات الطريقة التى كان يذهب بها مبارك إلى الصين، وفى بكين لم يتذكر «الشيخ» مرسى معاناة مئة مليون مسلم فى مقاطعات غرب الصين، وهو الذى لا يفتأ يكرر حكاية أهل السنة

والجماعة، ويتعمد إغاظة الشيعة المسلمين على طريقة «كيد النسا»، وعلى النحو الذى افتتح به خطابه فى مؤتمر حركة عدم الانحياز فى طهران، وبدا كأنه يستعيد زمن الفتنة الكبرى التى فرقت المسلمين شيعا وفرقا ومذاهب، ولم يكن فى ذلك سهو ولا خلط، بل كان كل شيء متعمدا، فقد غضبت أمريكا وقتها من اعتزام مرسى زيارة طهران، وغضب أهل أمريكا فى الخليج، والذين تعودوا على إذلال السياسة المصرية، ومنع مصر من إقامة علاقات طبيعية مع إيران، كان ذلك فى زمن المخلوع، وسرى الأمر ذاته فى زمن مرسى، والذى بدا كأنه يتمرد على القيد، ويعتزم مغازلة طهران، وكان على مرسى أن يبحث عن حيلة للخروج من الحرج، كان عليه أن يفاقم الخلاف مع إيران، لا أن يرمم الجسور المقطوعة معها، وهكذا فعل فاستعاد رضا السادة فى واشنطن وفى عواصم الخليج، واستخدم اسم مصر فى إشعال المزيد من الفتنة والفرقة بين السنة والشيعة، وعلى الطريقة التى تريدها واشنطن بالضبط، والتى تتبنى سياسة بريطانيا القديمة «فرق تسد»، وترسم خرائط المنطقة على أساس الحرب الدائمة بين «الهلال الشيعى» و«القوس السنى»، وفى سياق التعبئة ضد إيران «الشيعية» وصناعاتها العسكرية وبرنامجها النووى المتقدم، وكأننا بصدد مسخرة دينية وحفل للأقنعة التنكرية، تبدو فيه السيدة عائشة أم المؤمنين، والتى عارضت الإمام علىّ وشيعته، وكأنها تحولت - والعياذ بالله - إلى السيدة هيلارى كلينتون «أم الإخوان»، وبما يجعل مرسى ينهض بالدور التخريبى نفسه الذى كان موكولا لمبارك، وبكفاءة دينية أكبر(!).

وربما كان ذلك التطابق هو الذى حمل متظاهرين فى القاهرة على رفع لافتة ملفتة، غيروا فيها اسم الرئيس محمد مرسى العياط إلى الرئيس محمد مرسى «مبارك».

"صوت الأمة" فى ١٠ من سبتمبر ٢٠١٢